المحاضرة الثامنة

قضية اللفظ والمعنى عند ابن قتيبة وابن طباطبا وقدامة بن جعفر:

قضية اللفظ والمعنى من أشهر قضايا النقد العربي القديم، ومن أقدمها وأكثرها التصاقا بطبيعة العمل الشعري والفني عموما، ففي كل عمل فني شكل ومضمون، وظاهر وباطن، أو معنى وصياغة. ومن ههنا فليس مستغربا ظهور هذه القضية في النقد الأدبي عند العرب وغيرهم، فهذه القضية ليست بدعا في نقدنا القديم.

على أن القضية ليست من البساطة والتسطيح، بما قد يوحي به ارتباطها بطبيعة العمل الفني القائم على شكل ومضمون، ذلك أن لها من العمق ما توحي به أسباب ظهورها، التي بلغت من التعقد والعمق والتنوع مبلغا بعيدا، وأظهرها ثلاثة أسباب أساسية حسب بعض الدارسين، ترجع إلى حقول وعلوم مختلفة وهي:

1- الصراع بين العرب والشعوبيين، فقد كان من الجبهات التي فتحها الشعوبيون في عداوتهم للعرب الجبهة الثقافية، ولما كان جل افتخار العرب بالتفوق في الفصاحة والبلاغة، وكان أكثر حججهم على غيرهم قائما على ذلك، وجّه الشعوبيون سهام طعنهم على العرب إلى هذه الجهة، زاعمين أن ثقافة العرب ثقافة ألفاظ، وأنها عاجزة عن مضاهاة ثقافة العجم في دقائق الأفكار، ولطائف المعاني.

2- ظهور مشكل "خلق القرآن "، الذي قالت به بعض الفرق الإسلامية، والذي يمكن النظر إليه بصيغة استفهامية تتمثل في السؤال : أبلفظه أُنزل القرآن الكريم، أم بمعناه" ؟.

3- تأثر النقاد والبلاغيين العرب القدماء بالآداب والثقافات والفلسفات التي عرفت هذه القضية، لاسيما الثقافة اليونانية، فقد عرفت الأمم الأخرى هذه القضية، وعالجتها في آدابها ونقدها، وما من شك في أن هذا السبب هو الأنسب للقضية بما أنه سبب فني خالص.

وقد شغلت قضية اللفظ والمعنى النقاد العرب القدامى ، حيث تناولوها بالدراسة، واتجهوا فيها اتجاهات متباينة ، وانقسموا فيها إلى ثلاثة أقسام: قسم انتصر للفظ على حساب المعنى ، وقسم انتصر للمعنى على حساب اللفظ ، وقسم ثالث ساوى مابين اللفظ والمعنى.

وسنحاول في هذه المحاضرة أن نستعرض آراء ثلاثة نقاد في هذه القضية وهم ابن قتيبة وابن طباطبا وقدامة ابن جعفر.

أولا: ابن قتيبة (ت 276هـ) :

لقد نظر ابن قتيبة إلى الشعر وقسمه حسب اللفظ والمعنى إلى أربعة أقسام.

يقول: " تدبرت الشعر فوجدته أربعة أضرب، ضرب منه حسن لفظه وجاد معناه ، كقول القائل في بعض بني أمية:

في كفه خيزران ريحه عبق من كف أروع في عرنينه شمم

يعطي حياء ويعطي من مهابته فما يكلَّم إلا حين يبتسم

لم يقل في الهيبة أحسن منه.

وكقول أوس بن حجر:

أيتها النفس أجملي جزعا إن الذي تحذرين قد وقعا

وكقول ابن ذئيب:

والنفس راغبة إذا رغبتها وإ ذا ترد إلى قليل تقنع

وضرب منه حسن لفظه وحلا ، فإذا أنت فتشته لم تجد هناك فائدة في المعنى ، كقول القائل:

ولما قضينا من منى كل حاجة و مسح بالأركان من هو ماسح

وشدت على حدب المهاري رحالنا ولا ينظر الغادي الذي هو رائح

أخذنـا بأطراف الأحاديث بيننا وسارت بأعناق المطي ألباطح

ويعلق ابن قتيبة على هذه الأبيات بقوله :" هذه الألفاظ كما ترى أحسن شيء مخارج ومطالع ومقاطع ، وإن نظرت إلى ما تحتها من معنى وجدته : ولما قطعنا أيام منى ، واستلمنا الأركان، وعالينا إبلنا الأنضاء ، ومضى الناس لا ينتظر الغادي الرائح ، ابتدأنا الحديث وسارت المطي في الأبطح ، وهذا الصنف في الشعر كثير.

وضرب منه جاد معناه وقصرت ألفاظه عنه ، كقول لبيد ابن ربيعة:

ما عاتب المرء الكريم كنفسه والمرء يصلحه الجليس الصالح

هذا وإن كان جيد المعنى والسبك فإنه قليل الماء والرونق .

وضرب منه تأخر معناه وتأخر لفظه، كقول الأعشى :

ولقد غدوت إلى الحانوت يتبعني شاو مشل شلول شلشل شول

فهذه الألفاظ الأربعة في معنى واحد ، وقد كان يستغني بأحدها عن جميعها ، وماذا يزيد هذا البيت أن كان للأعشى أو ينقص ".

ما يمكن استخلاصه من قول ابن قتيبة :" إن الشعر عنده لفظ ومعنى وكلاهما يجيء حسنا حينا ورديئا حينا أخر" ، وهذا هو مقياس الجودة والرداءة عنده.

كما أن ابن قتيبة يهمل الفئة التي تنتصر للمعنى ، وعليه فالمعاني أشرف من الألفاظ ، ولو جردت الألفاظ من دلالاتها على المعاني ، لما كان شيء معها أحق بالتقديم من شيء.

بينما يعلق الدكتور إحسان عباس على آراء ابن قتيبة بأنه بنى حكمه هذا بالاعتماد على البيت الواحد أو البيتين أو في أقصى حد الثلاثة أبيات ، وهو حكم لا يعمم على كافة الشعر.

ثانيا- ابن طباطبا العلوي(ت322هـ) :

لقد تأثر ابن طباطبا في نظرته إلى ثنائية اللفظ والمعنى بابن قتيبة ، فهو يعد صحة المعنى وعذوبة اللفظ مع صحة الوزن غير أن ابن طباطبا قد خالف ابن قتيبة عيار الشعر المحكم في مسألة أنه لم يلتزم بالقيمة المنطقية التي التزم بها ابن قتيبة ، ويرى:" أن هناك أشعار باردة المعنى ، أبرزت في أحسن معرض وأبهى كسوة وأرق نسيج. فابن طباطبا يقف من الشعر موقفا ذوقيا لا موقفا منطقيا" .

وقد شبه ابن طباطبا علاقة اللفظ بالمعنى بعلاقة الجسد بالروح وذالك في قوله: "والكلام الذي لا معنى له كالجسد الذي لا روح فيه ، كما قال بعض الحكماء: للكلام جسد وروح ، فجسده النطق وروحه معناه ".

ويرى الدكتور إحسان عباس أن هذا التصور الذي أخذه ابن طباطبا من بعض الحكماء يجعل الصلة بين اللفظ والمعنى أوضح مما رسمه ابن قتيبة ، على أنه ربما لم يقتصر في العلاقة بينهما على الوجوه الأربعة التي عدها ابن قتيبة.

ثالثا- قدامة بن جعفر(ت 337هـ) :

تناول قدامة ابن جعفر من جهته قضية اللفظ والمعنى ، وحسب رأيه أن اللفظ الجيد ما كان سمحا ، سهل مخارج الحروف ، خال من البشاعة ، فصيحا.

أما عيوب اللفظ " أن يكون ملحونا وجاريا على غير سبيل الإعراب واللغة ، وأن يرتكب الشاعر فيه ما ليس يستعمل ولا يتكلم به إلا شاذا ، وذلك هو الحوشي الذي مدح عمر ابن الخطاب زهيرا بمجانبته له وتنكبه إياه فقال: كان لا يتتبع حوشي الكلام ".

كما تكلم عن المعاني وذكر نعوتها وعيوبها ، وحسب رأيه أن يكون المعنى مواجها للغرض المقصود ، غير بعيد عن الأمر المطلوب ، وهذه الأغراض المقصودة هي المديح

والهجاء، والنسيب والمراثي ، والوصف والتشبيهكما تكلم عن أنواع ائتلاف اللفظ مع المعنى ، وحصر هذه الأنواع في:

-**المساواة:** وهو أن يكون اللفظ مساويا للمعنى حتى لا يزيد عليه ولا ينقص عنه.

- **الإشارة:** وهو أن يكون اللفظ القليل مشتملا على معان كثيرة بإيماء إليها أو لمحة تدل عليها، كماقال بعضهم في وصف البلاغة فقال " هي لمحة دالة ".

- **الإرداف:** كأن يريد الشاعر دلالة على معنى من المعاني فلا يأتي باللفظ الدال على ذالكالمعنى ، بل بلفظ يدل على معنى رديف وتابع له ،فإذا دل على التابع أبان عن المتبوع، بمنزلة قول امرئ القيس:

وقد أغتدى والطير في وكناتها بمنجرد قيد الأوابد هيكل

فقد أراد أن ينعت هذا الفرس بسرعة العدو ، وأنه جواد فلم يتكلم باللفظ بعينه ولكن بإردافه ولواحقه التابعة له ، وذلك أن سرعة إحضار الفرس يتبعها أن تكون الأوابد وهي الوحوش كالمقيدة له إذا نحا في طلبها .

- **التمثيل:** وهو أن يريد الشاعر إشارة إلى المعنى ، فيضع كلاما يدل على معنى آخر وهذا المعنىالآخر والكلام ينبئان عما أراد أن يشير إليه ، كقول بعض الأعراب:

فتى صدمته الكأس حتى كأنما به فالج من دائها فهو يرعش

والكأس لا تصدم ، ولكنه أشار بهذا التمثيل إشارة حسنة إلى شدة سكره .